الجمال المصرى القديم
فى النحت
للدكتور أحمد موسى

« سل من شئت من المصريين عن تاريخ مصر الفنى ، وعما فى تراث الأجداد من مميزات ، وعن الناحية الجميلة الممتعة فيه ؛ بل سل أغلبية الناس فى مصر ممن زار أهرام سقارة ، وممن تطرف فى حب مشاهدة الآثار المصرية وسافر إلى الأقصر ، وشاهد معبد الكرنك وطيبة ووادى الملوك والملكات ، وتمثال ممنون ... سل كل هؤلاء عما شاهدوه وعما استفادوه ، وعن ناحية الجمال فيما عاينوه ، فلا تسمع إلاّ تخبطاً يكاد لا يختلف عما تسمعه من أميّ يعيش بجوار هذه الآثار

ش١ — (رأس نفرت) : متحف القاهرة

ثم شاهد مدينة القاهرة — على اعتبارها عاصمة القطر وأهم مدينة فيه — وما فيها من ضروب الخروج على أبسط مبادىء الذوق العام واخطر فى أحسن شوارعها يستوقفك شذوذ الانسجام

ش٢ — (زوجة السدة) : متحف القاهرة

فى مبانيها ، وظاهرة انحطاط الذوق فى كل ما فيها . ثم تفلسف قليلاً لمعرفة السبب فى ذلك تجده ولا شك ينحصر فى جهل الناس معنى الجمال ، ومعنى الذوق ، ومعنى الفن . وهم فى ذلك سواء ، يستوى الجاهل مع العالم ، والفقير مع الغنى

بيوت عالية شاهقة ، وأخرى واطئة حقيرة ، كلها متجاورة . وإذا صادفت عشر عمارات كبار الواحدة ملتصقة بالأخرى ، ترى لكل منها شكلاً ولكل منها منهجاً ؛ كل هذا بجانب دكاكين كتب على أعلى مداخلها باللغة الفرنسية مرة وبالإيطالية أخرى وبالأرمنية ثالثة ، دكاكين كتب فى أعلى مداخلها بالعبرية حيناً

وبالإغريقية حيناً آخر ، وكما تصادفك أخرى كتب عليها بالعربية لغة الوطن ، لغة البلاد !

ش ٣ — (والدة إخناتون) متحف القاهرة

تأمل كل هذا . وتأمل بعض الناس وهم يتهافتون على شراء تماثيل من الجص الرخيص ، تماثيل لا تمت للفن بصلة وتسجل على مشتريها قلة الذوق وعدم الفهم والجهل بأبسط مظاهر الجمال

تأمل كل هذا ثم عرج على آثار الأقدمين ترها منسجمة كلها من طراز واحد سمى الطراز المصرى القديم ، له طابع وله انسجام وله أثره فى فنون الغير ، يعطيك صفته دون حاجة إلى دقة الفحص ودون حاجة إلى سابق الدرس .

كل هذا لأن الذين قاموا بالعمل الفنى كانوا من المصريين الصميمين لم يكن لهم وسيلة للتهريج أو الدجل ، كما أن الذين أشرفوا عليهم وعملوا على تشجيعهم كانوا من أبناء البلاد

بهذا التمهيد بدأنا مقالنا الأول عن الفن المصرى[1] على صفحات « الرسالة » ومنه نرى أن تاريخ الفن قد سجل للمصريين الأقدمين ذوقاً عظيماً ووحدة فنية ظاهرة لكل متأمل .

(١) راجع عدد الرسالة الخاص بهذا الموضوع

وإذا كنا اليوم نكتب عن الجمال المصرى القديم ، فإننا نريد بذلك الكتابة فى الفن البحت ، وليس فى تاريخ الفن ، بالقسط الذى اعتدنا أن نتناول به سابق الأبحاث .

ولا يكاد يختلف اثنان فى تقدير الفن المصرى القديم وخلود عظمته بل والتأكد من أنه أصل الفنون جميعاً ، أثر فيها إلى حد بعيد جعل من علماء الفن والآثار من يشتغل بتحديد الصلة بين الفن المصرى وبين ماجاء بعده من فنون الاغريق وغير الاغريق؛ فأخذوا يقولون بأن الاغريق هم أول من اقتبس من المصريين ، كما أخذوا يدللون على ذلك بمقارنات قياسية بين تصميم المعابد المصرية ونظيرها عند الاغريق ؛ كما أنهم قارنوا بين منحوتات المصريين ومنحوتات الاغريق فى أول عهدهم ، ثم تراهم يعرجون بعدئذ على قواعد غاية فى الدقة تؤكد صدق قولهم ، منها تناسب الأعضاء وتشابه المجموع الكلى وتناظر الانشاء الشكلى .

ش ٤ — (والدة حرمحيب) متحف القاهرة

وكل هذا قد يكون صحيحاً غاية الصحة ، ولكن الذى يجب علينا أن نعلمه هو أن الفن المصرى فن مبتكر ، بدأ ونما وازدهر ثم انحط واندثر دون أن يصل فى مرحلة من مراحله إلى المثل

الأعلى بمعناه الفنى؛ لأنه لم يمثل الحقيقة تمثيلاً يدل على التقليد البحت ولا جعل من الحقيقة ملهماً للخيال السامى ، ولا اتخذ منها مايرتفع بالتصوير الفنى إلى درجة الروعة .

ش٥ — (الواعظة توى) متحف اللوفر

كان هذا ولا يزال معدوداً من القصور الحتمى الذى لم يكن للتخلص منه بد ، لأنه نجم عن طبيعة البلاد المصرية ونفسية الشعب ، إلى جانب بساطة الطبيعة وصفو السماء وسهولة العيش . لذلك ومع أن الفن المصرى قطع مرحلة تبلغ ثمانية أضعاف المرحلة الزمنية التى استغرقها الفن الإغريقى ؛ فإنه للأسباب الطبيعية المذكورة لم يصل إلى ما وصل إليه الإغريق .

وإذا كنا لانزال نذكر ماقلناه عن بعض منحوتات أكروبوليس أثينا ومعبد پارتنون [1] وما كانت عليه تلك القطع الخالدة التى مثلت الحياة أروع تمثيل ، لأنها وصلت إلى أقصى ما يمكن أن يصل إليه الفن إطلاقاً ، أمكننا أن نعرف بالمقارنة مدى ماوصل إليه المصريون فى هذا المضمار معرفة تقرب إلى الحقيقة العلمية .

ولعله جدير بالذكر أن نوضح شيئاً عن الكيفية التى سار عليها المصريون فى تلوين منحوتاتهم ، بل وكل ما تركوه بمقابرهم وأهرامهم ومعابدهم من غير المنحوتات بألوان معدنية وصناعية اتخذوا بعضها من الأرض .

حصل هذا التلوين عندما كانت منحوتاتهم من الحجر الجيرى أو الرملى ؛ أما عندما كانت من حجر الجرانيت الوردى أو الأسمر أو حجر البازلت أو السربنتين فقد تركت بدون تكوين اكتفاء باللون الطبيعى .

على أنه قد وجدت تماثيل خشبية أو حجرية قابلة لامتصاص الألوان ولكنها تبدو كما لو كانت غير ملونة ، وهذا فى غالب الأحيان لزوال اللون منها أو لأنها تركت قبل تلوينها لظروف طارئة .

هذا بيان لابد من إيضاحه قبل تأمل النحت المصرى الذى يمثل جمال المرأة المصرية على اعتبارها ممثل الجمال الإنسانى غالباً . وإذا كان الجمال فى جوهره متلخصا فى تناسب التكوين وانسجام المظهر ، فإن قياس الجمال رهين بالزمان والمكان ، كما أنه راجع إلى نفسية الحاكم وبيئته وثقافته ومدى تأثره .

ولذلك فلا يهمنا فى القرن العشرين أن نقارن بين جمال المرأة المصرية وجمال غيرها ، وإنما يهمنا أن نتخذ من آثار الأقدمين وسيلة لفهم الجمال المصرى القديم وفيم كان منحصراً وكيف كان تعبير الفنان المصرى عنه .

وبالنظر إلى أن تاريخ الفن المصرى قد استغرق قروناً ، فإنا ستحاول تأمل الإنتاج الفنى فى هذا المجال تأملاً تاريخيا إلى جانب التأمل الفنى الذى يمهد لنا سبيل التقدير الإستيتيكى .

فإذا تأملنا رأس « نفريت » التى يرجع تاريخ صنع التمثال الخاص بها إلى أقدم الأسرات ، رأينا أن ملامح الوجه تدل على النعمة والبعد عن الكفاح مع توافر النبل ، لاسيما إذا راعينا أن هذا من أقدم التماثيل المصرية التى تمثل جمال المرأة. أنظر إلى العينين والحاجبين وإلى الطريقة التى اتبعها المثال فى التأنق لإخراجها بغاية النظام والعناية . ثم تأمل الطريقة التى اتبعت فى تصفيف

(١) راجع عدد الرسالة الخاص بهذا الموضوع

الشعر وقصه عند الكتفين وتثبيته من أعلى بطوق من الذهب محلى بنقوش لها الطابع المصرى . كما تغطى العنق بحلية زادته جمالاً وزانت الصدر بما فيها من ألوان وزخارف . أما الميز الخاص الذى انطبع على الوجه فهو أميل إلى الصمت والسكون منه إلى الحياة والحركة . ولا نزال نرى الكثيرات من المصريات على جانب

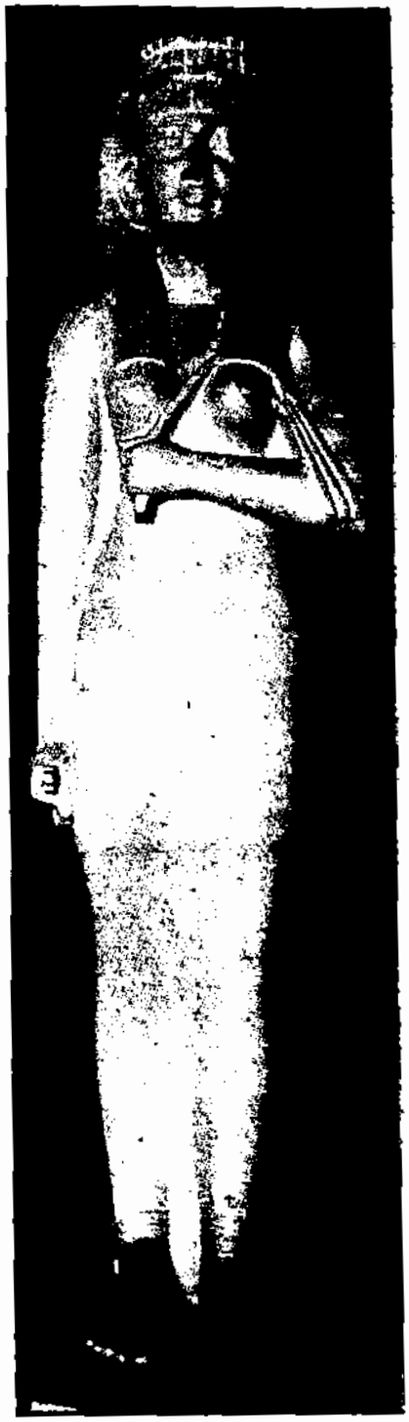

ش ٦ — (أمينوديس) متحف القاهرة

مماثل لهذا الجمال . وربما أضيف هنا أنى أردت منذ حين التوفيق بين الجمال المصرى القديم والجمال المصرى المعاصر ، وحاولت عمل المقارنات الدقيقة ، إلا أنى للأسف صادفت مصاعب ، منها عدم إمكان تصوير السيدات اللواتى جمعن إلى جمالهن طابع الجمال القديم

أما تمثال «حرم العمدة» وهو مصنوع من الخشب فقد أعطانا فكرة صحيحة عن قوام المرأة فى تلك الحقبة إلى الوقت الذى فيه نستطيع بمقارنة الوجه من جانبه ومن أمامه أن نعرف شكل الأنف المصرى وطريقة تكوينه واستقامته . أنظر إلى الفم وقارنه بفم « نفريت » تر أن هذا الأخير اكتسب شيئاً من الحياة بالنظر إلى تلك الابتسامة الهادئة التى ارتسمت عليه . والغريب فى الشعر هنا أنه ليس مجدولاً كشعر نفريت كما أنه تميز بتدرج نهايته السفلى ، فكان أشبه بثلاث طبقات تعلو الواحدة منها الأخرى ، فزادته رونقاً . نعم كان التمثال الأول ملوناً فظهر الكحل فى العينين على حين كان الثانى من الخشب دون ألوان ظاهرة . أما التشابه بين السيدتين فظاهر واضح من حيث امتلاء الوجه واستدارته .

أما والدة إخناتون فهى على هيئة عجيبة لها طابع مميز على غاية القوة ، كما يبدو لأول وهلة أن لونها كان أسمر مما يؤيد أنها كانت من مصر العليا . وعلى ما يظهر كان الفنان حريصاً على إخراج الوجه مليئاً بالحياة ، فتكاد العينان تنطقان . وقد بدا الفم غريباً فى تكوينه وفيما يدل عليه . أنظر إلى استدارة الخط الفاصل بين الشفتين واتجاهه إلى أسفل تر أن هذا الوجه لم يكن فقط ليعطى الناظر هيئة صاحبة التمثال ؛ وإنما عبر خير تعبير عن النفسية وما هو دفين فيها . ولعل غطاء الرأس بالسهم المثبت فى وسطه يذكرنا جيداً بالخوذات الحربية الألمانية قبل الحرب

وتمثال موتنوزميت أم حورمحب (ش ٤) يعطى مثلاً سليما لنفس الجمال ، مع ملاحظة أن الرأس أصبح مزيناً بغطاء ذى نقوش رفيعة توسطها أعلى الجبين الأفعى المصرية .

وإذا تأملنا بشىء من الدقة التمثالين (٥ ، ٦) وجدنا فيهما تشابهاً شديداً من حيث التكوين المجموعى إلى جانب التفاصيل الإنشائية ؛ فأنت ترى أن القوام متشابه وأن وضع اليد اليسرى كان على الصدر بفارق بسيط ، كما أن اليد اليمنى ممتدة فى كليهما إلى أسفل ، وتقدمت الساق اليسرى فى كليهما إلى الأمام . نعم نجد الشعر مجدولاً بشكل مخالف فى كليهما ، كما أنه مختلف من حيث التصفيف وطريقة القص . أما القوام فهو المثل الأعلى لوقتنا الحاضر ، كله رشاقة وكله جمال . ومن الغريب أن نرى أن أحدث طريقة لصف الشعر هى إظهار الأذنين ، ونجد أن المرأة المصرية قد اتبعت هذه الطريقة منذ خمسة وعشرين قرناً .

أما تمثال أوارا (ش ٧) فهو يمثل امرأة جلست وقد سترت

جسمها بملابسها الرقيقة بطريقة استطاع الفنان أن يظهرها فى أجمل وأروع هيئة . تأمل الذراعين واتكاءها على الركبتين ثم لاحظ النبل الذى ارتسم على الوجــه ، وانظر إلى خط التحديد للتمثال كله ، وفكر ولو قليلاً فى الـكيفية التى استطاع بها الفنان المصرى التعبير عن الجمال .

ش ٧ — (أوابرا) متحف اللوفر

نلاحظ طبعاً كبر الأذن ، كما نلاحظ صمت التمثال وركونه إلى الـكون ؛ ولـكن هــذا لا يمنع مطلقاً من الإعجاب فى أجلى مظاهره بالـكيفية التى سار عليها الفن فى عصر يبعد عن عصرنا بألفين وخمسمائة سنة .

والخلاصة أننا نرى أن الجمال المصرى القديم كان نبيلاً عريقاً خالياً من الدخيل ، صافياً نقيًّا ، غير ممتزج بغيره ، جمع بين الصفة المميزة وبين الطبيعة البريئة الوديعة .

والسلوة الوحيدة التى نتعزى بها ، هى أننا نرجو أن نحسن الفهم على الأقل لفن تركه الأجداد ولم نمن بدراسته والعمل على نشره حتى بين أبناء البلاد .

وإذا كنا ندين بنتائج الحفريات ومعرفة اللغة الهيرغليفية لعلمــاء الأجانب ، فإننا على الأقل يجب أن نعنى بفهم الفن المصرى ودراسته ، حتى نستطيع أن نخرج عن المباهاة بما فى بلادنا من آثار وندخل فى دور الاستمتاع بها ، فتكون لنا روح وطنية صرفة لها أثرها فى توجيهنا لمجاراة الشعوب الناهضة .

هــذا مقال لا يخرج عن كونه احتيالا على القارئ لتفهيمه صفحة رائعة من صفحات آثار أجداده بطريقة التكلم عن الجمال فى أسلوب بسيط بعيد عن الجفاف العلمى .

احمد موسى

ســـينما الـكوسال

ابتداء من الاثنين ٢٣ يناير الى يوم الأحد ٢٩ منه

تعرض شركة بارامونت الفلم الرائع

تربيـــة الأمير

يمثله ثمانية من أبطال الفن وأعلام الـكواكب :

الفير بوبسكو ، لويس هوفيه ، أرم ، شربين ، ر. لين ، هوزيت دى ، تمبرسون ، ميرلى بيرى

وهو فلم من أرقى الأفلام الفرنسية يقف بموضوعه وتمثيله وإخراجه بجانب أشهر الأفلام العالمية.